

المحاضرة الرابعة

عناصر المحاضرة

مصادر المعرفة

❖ المذهب العقلي

❖ المذهب التجريبي

❖ المذهب الحدسي.

❖ المذهب البراغماتي.

❖ موقع الوحي من مصادر المعرفة

يختص هذا المبحث بدراسة الوسيلة أو الأداة أو المصدر الذي تتم عن طريقه تشكيل المعرفة الإنسانية، عبر تحديد مصادر المعرفة (الأدوات المعرفية)، وتحديد الآليات التي تتيحها هذه المصادر للمعارف الكاشفة عن الواقع الموضوعي. وقد اختلفت الفلاسفة في ذلك على مذاهب:

فمنهم من ذهب إلى أن العقل هو المصدر الأول والأساسي للمعرفة (وهؤلاء هم العقليون). -

ومنهم من ذهب إلى أن التجربة الحسية هي المصدر الأول والأساسي للمعرفة (وهؤلاء هم التجريبيون). -

ومنهم من ذهب على أن الحدس والإلهام هو المصدر الأول والأساسي للمعرفة (وهؤلاء هم الحدسيون). ومنهم من جمع - بينها وبين الوحي.

والاختلاف في المصادر الأساسية للوصول إلى المعرفة، لا يعني القول بإلغاء المصادر الأخرى في حال إثبات إحداها، وإنما يعني القول بأن الأولوية في الثبوت هي لهذا المصدر أو ذلك.

(Rationalism:أولاً: المذهب العقلي)

تتمثل مصدرية العقل للمعرفة عند العقليين في صورتين:

أ. هي التي يستغني فيها العقل لتحصيل المعرفة عن أي شيء سواه، من خلال استنباط قضايا جديدة من قضايا سابقة معلومة، بقطع النظر عن الوجود الخارجي.

ب. هي التي تفسر مصدرية العقل للمعرفة برد الحكم على الأشياء إلى مبادئ العقل الفطرية، فمادة المعرفة تكون من الإدراكات الحسية، ولكنها لا تكون معرفة علمية إلا بالاحتكام إلى العقل الذي يجعلونه مصدراً لها، وهذه المعرفة تنقسم عندهم إلى معرفة يديهية أو ضرورية تضطر النفس إلى الإذعان لها والتسليم بها دون الحاجة على النظر والاستدلال،

وإلى معرفة نظرية تحتاج إلى نظر واستدلال.

وقد اتفق العقليون على أن: العقل قوة فطرية مشتركة بين الناس جميعاً، وتصوروا أن مبادئه لا بد أن تكون كلية ومشتركة بين جميع الأذهان، وضرورية صادقة على جميع الأشياء، وأولية سابقة على كل تجربة.

فالقول بأن (الكل أكبر من الجزء) أو (الشيء الواحد لا يمكن أن يكون موجوداً وغير موجود في وقت واحد)، كأن نقول $2+2=4$).

فهذه المبادئ وغيرها مبادئ عقلية تتصف بذاتها: معارف قائمة بذاتها، سابقة للتجربة وليست نتيجة لها، تتصف بالضرورة أي لا تحتاج على برهان آخر لإثباتها، ولا تختلف هذه المعارف باختلاف الناس أو بتغير الأزمنة والأمكنة لذلك فإن هذه المعارف هي معارف أولية قائمة بذاتها.

وهكذا، يقوم موقف العقليين على التسليم بأن للعقل مبادئ جاهزة، أو طرقا فطرية هي التي تقوده إلى معرفة حقائق الأشياء، ومعارفه مستغنية عن أي معرفة سابقة. ولذلك، فإن الصورة المثلى عند العقليين هي تلك التي يمثلها البرهان الرياضي، فمثل هذه البراهين تبدأ بالبداهيات أو الحقائق القائمة بذاتها.

- إن العقليين لا يرفضون ما تجيء به الحواس من معارف ومعلومات (غاية ما في الأمر أنها معلومات لا يقطع بيقينها حيث أن الحواس كثيرا ما تخدع، فأحيانا نرى شيئا وهو خلاف ما نراه... وهي معارف تحتل الخطأ).
- فالحس على أساس نظرية العقلين، مصدر فهم للتصورات والأفكار البسيطة، ولكنه ليس السبب الوحيد، بل هناك معارف أولية تثبت في العقل ابتداء، وهي سابقة على الحواس ومستغنية عنها.
- فالمذهب العقلي يوضح أن الحجر الأساس للعلم هو المعلومات العقلية الأولية، وعلى ذلك الأساس يقوم البناء الفوقي للفكر الإنساني، الذي يسمى بالمعلومات الثانوية، أي المعلومات الحسية التجريبية.
- فالعقل يمتلك إزاء كافة ظواهر الوجود ومظاهره أحكاما لا تتعدى ثلاثة أحكام ممكنة، فهو (العقل) إما أن يحكم عليها بانها أكيدة وواجبة، وإما أن يحكم عليها بانها مستحيلة وممتنعة، وإما يحكم عليها بانها ممكنة وجائزة.
- فأصحاب المذهب العقلي يرون أن الحجر الأساس للعلم هو المعلومات العقلية الأولية، أي أن المقياس للتفكير البشري - بصورة عامة - هو المعارف العقلية الضرورية، فهي الركيزة الأساسية التي لا يستغني عنها كل مجال، ويجب أن تقاس صحة كل فكرة وخطئها في ضوئها. ويصبح ميدان المعرفة البشرية أوسع من الحس والتجربة.
- من أشهر الفلاسفة العقليين أفلاطون صاحب نظرية الاستدكار، وهي النظرية القائلة بأن الإدراك عملية استدكار للمعلومات السابقة.
- وقد سار فلاسفة المذهب العقلي على طريق أفلاطون في اهتمامهم بالرياضيات واستخدامهم المنهج الرياضي، وعلى رأسهم أرسطو صاحب المنهج الاستدلالي في المعرفة.
- وفي العصر الحديث جاء ديكارت الذي قال (إن العقل هو اعدل قسمة بين البشر)، وتبنى الشك المنهجي منهجا للمعرفة، وكذلك اسبينوزا الذي واصل طريق ديكارت في استخدام المنهج الرياضي، والوضوح العقلي معيارا للحقيقة.
- ثم ليبنيتر الذي يرى أن جميع القضايا الصادقة يمكن معرفتها بواسطة الاستدلال العقلي الخالص، وذهب إلى أن أفكارنا تكون أصلا في أذهاننا.
- كما يعتبر كانت صاحب المذهب النقدي من العقلانيين، إذ كان يميز في المعرفة بين ما هو أولي سابق على كل تجربة، ما هو بعدي مكتسب بالتجربة، فالصورة الأولية السابقة على التجربة هي الأساس في اكتساب المعرفة

Empiricism(ثانيا: المذهب التجريبي)

هو مذهب يقول إن الخبرة مصدر المعرفة وليس العقل، والتجربة بهذا المعنى نقيض الفلسفة العقلية التي تفترض أن هناك أفكارا لا يمكن أن تزودنا بها الحواس وينشئها العقل بمعزل عن الخبرة، وتسمى لذلك معرفة فطرية أو قبلية.

وبرزت التجربة على يد جون لوك. ثم تجسدت في الوضعية المنطقية والظاهرانية.

والتجريبية أو الحسية هي: (الاسم النوعي لكل المذاهب الفلسفية التي تنفي وجود معارف أولية بوصفها مبادئ معرفية).

ويقوم المذهب التجريبي في المعرفة على أساس أن التجربة هي المصدر الأول لجميع المعارف الإنسانية، وأن الحواس وحدها هي أبواب المعرفة، فليس في العقل شيء لم يمر بالحس أولاً، وينكر التجريبيون أن يولد العقل مزوداً بأفكار فطرية كما يزعم العقليون.

تبنى المعارف عند التجريبيين على الظواهر الحسية؛ لأنها المقياس الصحيح في بت الحكم. وليس هناك معرفة فطرية أولية سابقة على التجربة، وليس هناك ضرورة عقلية كما يسير عليه المذهب العقلي.

فالتجريبيون لا يعترفون بمعارف عقلية ضرورية سابقة على التجربة، ويعتبرون التجربة الأساس الوحيد للحكم الصحيح، والمقياس العام في كل مجال من المجالات.

يعتمد المذهب التجريبي على الطريقة الاستقرائية في الاستدلال والتفكير، لأنها طريقة الصعود من الجزئيات على الكليات.

وإذا كان العقليون اهتموا بالمعارف الرياضية التي تقوم على العقل، فقد اهتم التجريبيون بالعلوم الطبيعية التي تقوم على التجربة، وأنكروا قدرة العقل على أن يضمن لنا صدق القضايا التركيبية التي توضح لنا طبيعة العالم.

فالمذهب التجريبي يتلخص في أن المعرفة الإنسانية هي معرفة بعدية، أي تأتي في مرحلة تالية أو متأخرة عن التجربة الحسية فالعقل يستمد خبراته ومعلوماته من التجربة وحدها.

ومن أشهر الفلاسفة التجريبيين جون لوك الذي حاول في كتابه (مقالة في التفكير الإنساني) أن يرجع جميع التصورات والأفكار على الحس. وهو (أول من طبق الاتجاه التجريبي في الفلسفة) الغربية وأعلن رفضه لأهم مبادئ الاتجاه العقلي، وإنكاره أن تكون المعرفة الإنسانية أولية في العقل، سابقة على التجربة.

وكذلك جورج باركلي الذي كان يرى بأن أفكارنا هي ذاتها العالم الخارجي، ولم يعترف إلا بما يظهر لنا من الأشياء من خلال إدراكنا الحسي لها.

ثم ديفيد هيوم الذي اعتبر أن كل المعارف هي ذات أصول حسية، حتى المعارف العقلية هي ذات أصول حسية، وقد أنكر الميتافيزيقا، واعتبر أن وجودها يكون حقيقياً في حال احساسنا بالقضايا المتعلقة بالقضايا المتعلقة بها.

(:Intuitionismثالثاً: المذهب الحدسي)

وهو مذهب من يرى أن للحدس المكان الأول في تكوين المعرفة، ولهذه الحدسية معنيان:

أ. إطلاقها على المذاهب التي تقرر أن المعرفة تستند إلى الحدس العقلي.

ب. إطلاقها على المذاهب التي تقرر أن إدراك وجود الحقائق المادية هو إدراك حدسي مباشر، وليس إدراكاً نظرياً.

يقول بروور في وصف هذا النوع من الإدراك: (إن الإنسان لديه ملكة مستقلة تمكنه من فهم الحقيقة وإدراك الواقع مباشرة، وهذه الملكة ليست حسية ولا عقلية وإنما هي حدسية مباشرة).

والحدس عند ديكارت هو: (الإطلاع العقلي المباشر على الحقائق البديهية).

وعند كانت هو: (الإطلاع المباشر على معنى حاضر بالذهن، من حيث هو حقيقة جزئية مفردة).

والحدس عند هنري هو: (الحكم السريع المؤكد، أو التنبؤ الغريزي بالوقائع والعلاقات المجردة، وهو الذي يكشف لنا عن العلاقات الخفية).

وتعتبر الأفلاطونية المحدثة المنسوبة إلى أفلوطين رائدة الفكر الحدسي في المعرفة، فالمعرفة عندهم قائمة على الفيض والإشراق، ولا يمكن للإنسان أن يصل على المعرفة الحققة إلا عن طريق مداومة التأمل ورياضة النفس.

وأفضل من يمثل المذهب الحدسي الفيلسوف الفرنسي هنري برجسون، الذي تأتي فلسفته كرد فعل على النزعة المادية والاتجاه العلمي الذي شاع في أوروبا في القرن 19 ميلادي . حتى أوشك هذا الاتجاه أن يطغى على كل اتجاه روحي...فالعقل عاجز عن إدراك

الموضوع في صيرورته وديمومته، وهو لا يفهم حق الفهم إلا الأمور الجامدة التي تقبل القياس. أما الحدس فيتابع الموضوع في صيرورته، ويكشف عن حقيقته، ويحيط به في كليته.

وحسب برجسون فإن الحدس مشاركة وجدانية تنتقل عن طريقها إلى باطن الموضوع، لكي تندمج مع ما في ذلك الموضوع. وقد جعل برجسون الحدس هو مصدر المعرفة الحقيقي للواقع. وهو أقرب للكشف الصوفي.

وإذا كان برجسون تبنى الحدس وجعله مصدراً للمعرفة الحقيقية للواقع في الفلسفة الغربية فإن متصوفة المسلمين قد تبناوا الإلهام مصدراً للمعرفة وسبقوا بذلك فلاسفة الغرب في تبيينهم للحدس.

ذهب برجسون إلى أنه بالإضافة إلى العقل الذي توهم أنصاره أنه يقدم لنا المعرفة برمتها توجد ملكة أخرى للمعرفة؛ وهي من قبيل **Intuition** التجربة الوجدانية، سماها الحدس

يقصد بالحدس عدة معانٍ متباينة

. هو الإدراك المباشر عن طريق الحواس الإنسانية، مثل إدراك الضوء والروائح المختلفة الحدس الحسي

. الإدراك المباشر الناشئ عن طريق الممارسة المستمرة، مثل إدراك الطبيب لداء المريض من مجرد المشاهدة الحدس التجريبي

دون براهين- للمعاني العقلية المجردة التي لا يمكن إجراء تجارب عملية عليها، مثل إدراك الزمان- الإدراك المباشر: الحدس العقلي والمكان

يحدث أحياناً في الاكتشافات العلمية أن تكون نتيجة لمحة تطراً على ذهن العالم بعد طول التجارب: الحدس التنبؤي

(Pragmatism المذهب البراغماتي):

تطلق الفلسفة البراغماتية على مجموعة من الفلسفات المتباينة إلى حد ما، والتي تركز جميعها على مبدأ مؤداه أن صحة الفكر تعتمد على ما يؤدي إليه من نتائج عملية ناجحة، وكان الفيلسوف الأمريكي "شارلز ساتدرز بيرس" هو أول من استخدم اسم البراغماتية وصاغ هذه الفلسفة.

والبراغماتية (الذرائعية) مذهب فلسفي يرى أن معيار صدق الأفكار هو في عواقبها العملية، فالحقيقة تعرف من نجاحها. و يفسر النجاح بصورتين:

1- النجاح بمعنى المنفعة الشخصية ضمن نظام معين، فتكون الكذبة الناجحة حقيقة، وفي ظل هذه الصورة تتخذ الذرائعية مظهر السفسطة.

2- النجاح بمعنى التطبيق العملي والعلمي الذي يتوافق مع قوانين الطبيعة، فنقر بحقيقة قانون أو نظرية إذا حقق تطبيقات عملية، وبهذا المعنى تقترب البراغماتية من العقلانية.

ومن الفلاسفة الذين أذاعوا صيت المذهب البراغماتي الفيلسوف الأمريكي وليم جيمس. يقول جيمس: "الحق يقوم فيما هو مفيد (نافع) للفكر، كما أن العدل يقوم فيما هو نافع للسلوك، وأقصد بمفيد أنه: مفيد بأية طريقة، مفيد في نهاية الأمر في المجموع، لأن ما هو مفيد للتجربة المقصودة الآن لن يكون كذلك بالضرورة وبنفس الدرجة بالنسبة إلى تجارب لاحقة.

موقع الوحي من مصادر المعرفة

دأب دارسو نظرية المعرفة - فلسفياً أو علمياً - على حصر مصادرها في (الحس والعقل) كما دأبوا على استعراض الصراع الفكري والجدلي بينهم في أن المصدر هو الحس فقط أو هو العقل فقط أو هما معاً

ولأننا نؤمن بالدين الإلهي تتربع المصادر لدينا. وكان هذا لأنهم استبعدوا الفكر الديني أو المعرفة الدينية من مجال دراساتهم (الوحي، والعقل، والحس، والإلهام أو الحدس): كالتالي

إنّ المعنى الاصطلاحي الذي نقصده ونهدف إليه من الوحي هو ما يلقيه الله إلى أحد أنبيائه ورسله؛ نحو إنزاله القرآن على سيدنا محمد ﷺ، وإنزاله الإنجيل على سيدنا عيسى وإنزاله التوراة على سيدنا موسى وإنزاله الزبور على سيدنا داود عليهم السلام

: وإذا اقتصرنا على ما أنزل على محمد ﷺ فإتينا نجد أنّ الوحي ينقسم إلى قسمين هما

1. القرآن الذي أنزل عليه بلفظه ومعناه كما سيأتي .
2. السنة التي أوحيت إليه من الله بمعناها وإن كان اللفظ من قبله .

أولاً: ضرورة الوحي:

وتتجلى ضرورة الوحي مصدرا للمعرفة في ما يلي:

1. أن الوحي ممكن في نظر العقل: لأن العقل ذاته يسلم بأنه محدود بعالم الشهادة وقوانينها، ولا يستطيع إنكار ميدان آخر . وطريق آخر للمعرفة، كما ان العقل من خلال قوانينه يحكم بوجود عالم الغيب.
2. لا كفاية في العقل: لأن العقول قاصرة عن إدراك مختلف جوانب ومجالات الحياة والكون.

ثانياً: الحاجة للوحي:

1. الحاجة إلى الوحي في الاعتقاد.
2. الحاجة على الوحي في التشريع.
3. النبوة فيها حجة على الخلق.

- السؤال عن إمكان المعرفة هو سؤال عن جوهر المعرفة ومضمونها، وهو الحقيقة - أي هل يمكننا أن ندرك الحقيقة؟ وهل المعرفة ممكنة؟ وهل في وسع الإنسان أن يعرف شيئاً؟

إن مسألة إمكان المعرفة لم تكن مطروحة في الفكر البشري قديماً. وكان أول من بدأ البحث في مسألة إمكان المعرفة هم الفلاسفة اليونان، وتحديداً الذين عرفوا بالسفسطائيين أو الشكاك. وهؤلاء الفلاسفة (كانوا ينكرون قطعية المعارف الانسانية، وقد تطور الشك إلى أن أصبح مذهباً من المذاهب، وقد بلغ أشده على يد بيرون، صاحب المذهب الشكي عند اليونان، حتى أنه لقب بإمام الشكاكين).

- أما فلاسفة المسلمين ومتكلموهم، فقد (بحثوا في إمكانية المعرفة، وقد جعلوا مداخل كتبهم في العلم، وفي إثبات العلم والحقائق. وكان مسألة الإمكان أصبحت ضرورة تسبق بقية أبحاث المعرفة، ذلك لأنه -في نظرهم- لا بد من التسليم بإمكان المعرفة حتى يتسنى البحث في بقية مسائلها، إذ أن من ينكر إمكان المعرفة لا يستطيع أن يتحدث عن طبيعتها ومصادرها، وإن الذي يتيقن من إمكان المعرفة يحق له أن يبحث في كافة موضوعاتها).

إن خير ما يدل على نظرة إمكان المعرفة ويقينيتها دعوتهم إلى عدم مناظرة السوفسطائيين ومجادلتهم، لأن من لا يعلم مدى إمكانية صحة كلامه في المناظرة، فكيف سيتم حوارهم. يقول الإيجي: (المناظرة معهم قد منعها المحققون؛ لأنها إفادة المعلوم بالمجهول، والخصم لا يعترف بمعلوم حتى تثبت به مجهولاً).

ويمكن تحديد ثلاثة اتجاهات أساسية عند الحديث عن مسألة إمكان المعرفة:

فريق شك شكاً مطلقاً في إمكان المعرفة.

فريق يرى يقينية المعرفة، وهم الاعتقاديون أو الدغمانيون.

فريق ثالث يرى أنه بإمكان الإنسان أن يصل على معرفة متناسبة مع قدراته الحسية والعقلية، وهم النسبيون .

1. الشك المطلق:

بالرغم من أن الشك في أصله هو التردد في إصدار حكم بغرض الإمعان والتفحص، وهو ما يطابق معنى اللفظ اليوناني. إلا أن الشك القديم لم يكن يحمل هذا المعنى كما أنه اتخذ معنى جديداً في وقت لاحق.

فالصراع والتضارب بين المتناقضات الفلسفية في الفكر اليوناني كان سبباً لبلبلة فكرية وارتياب جذري، انتهت بهم على إنكار جميع الركائز الفكرية للإنسان، وإنكار المحسوسات والبدهييات.

. وقد وضع جورجياس (380 ق.م) كتاباً تحدث فيه عن (Pyrrhon) وأول من ظهر على يديه هذا المذهب هو بيرون أو فيرون عدم إمكان المعرفة، وعدم الوثوق بالعقل والحواس.

ثم جاء السوفسطائون وأنكروا وجود مقياس ثابت للحقائق، ورأوا امتناع وجود حقيقة مطلقة، وشكوا في كل شيء.

وتحولت السفسطة على عبث بالفكر والعلم. وكانت هذه الطائفة تؤمن بالبحث والجدل، وأحياناً يصل بهم الجدل على إنكار أنفسهم أيضاً.

فعاثوا تناقضاً بين وجودهم وتصوراتهم، ففي الوقت الذي ينكرون فيه كل حقيقة، تجدهم يلبون حاجاتهم البيولوجية دون أن ينكروا ذلك.

- وهذه المدرسة تنكر إمكان معرفة طبيعة الأشياء، وترى أن المعرفة الحسية والعقلية ليس لها قدرة تعريفنا بالحقيقة وإيصالنا إليها، فنحن لا ندرك من الأشياء إلا ما (يبدو) لنا

- . وكان الأشياء خارج الذات المدركة محض مظهر، أما إدراك طبيعة ذوات الأشياء فلا سبيل إليه .

ذلك لأن المعرفة - في رأي هذه المدرسة - تتأسس على الإدراك الحسي، والحواس خادعة لا تقود إلى معرفة يقينية؛ وحتى النظر العقلي - عند الفيرونيين - يتأسس على الحس فمعرفة حسية غير مباشرة ومن ثم يكون أولى أن ينطبق عليه ما ينطبق على الحس من حيث عدم يقينية المعرفة.

ولذلك كان شكهم شكاً مذهبياً (مطلقاً)، بمعنى انه يقوم على اساس أن الشك غاية في ذاته.

(الذي لا يعتبر الشك غاية في ذاته، بل يعتبر الشك وسيلة ليتوصل من خلاله إلى غاية أخرى وهي بلوغ اليقين).

ويرجع هذا الشك في جذوره التاريخية إلى الفيلسوف اليوناني سقراط. كما استخدم أرسطو ومدرسته المشائية الشك استخداماً منهجياً تأثراً بسقراط.

إذ رأى أن اليقين المنطقي يجب أن يقوم على الشك كمنهج في فحص الأفكار والتأكد من قابليتها للتعميم.

وعرف الشك المنهجي في حقل المعرفة الإسلامية عند المعتزلة، إذ كانوا يشترطون الشك كمقدمة ضرورية لصحة النظر المؤدي إلى العلم، إذ لا يصح النظر عندهم إلا مع الشك.

أما أبو حامد الغزالي فقد سلك طريق الشك بحثاً عن اليقين، وقد قرر في كتابه (المنقذ من الضلال) أن من لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقي في العمى.

وكان ديكارت من أكثر الفلاسفة تأكيداً على ضرورة الشك كمنهج في التفكير، وهو إلى جانب الغزالي يعتبر أن واضعي أسس الشك المنهجي، وكان هذا الشك هو التمهيد الضروري للمنهج.

ويعتبر الفيلسوف التجريبي ديفد هيوم من فلاسفة الشك المنهجي، الذي سماه بالشك العلمي.

خلافاً لأصحاب الشك المطلق الذين يقعون في الحيرة فيمتنعون عن إصدار الأحكام، فإن أصحاب الشك المنهجي قد اتخذوا من الشك سبيلاً إلى اليقين، وهو عملية اختيارية هدفها إفراغ العقل مما فيه من معلومات سابقة قد تكون عرضة للمغالطة وعدم التأكيد، وذلك لتهيئة العقل لدراسة الأمور دراسة موضوعية غير متأثرة بالمفاهيم الشائعة والأخطاء المألوفة.

القيمة العلمية للشك المنهجي:

بعد أن تلاشى الشك بوصفه نظرية في المعرفة توطدت أركان الشك بوصفه منهجاً للبحث والتدقيق في المعرفة، وتمدد بأدواته من الشك المعرفي (الشك الإستمولوجي)، بوصفه موضوعاً فلسفياً إلى شك منهجي يحفز الإنسان للبحث، والنظر، والتدقيق؛ ليشمل العلوم النظرية والتجريبية كافة، سواء تلك التي تولدت عن الفلسفة، واستقلت عنها، أو تلك التي نشأت مستقلة بذاتها.

مجالات الشك:

بمدرسة نوعي الشك (مطلق - منهجي) تبين لنا أن الشك المطلق هو شك في أصل المعرفة وإمكانيتها لذا يُسمى (بالمعرفي) لإنكاره إمكان المعرفة أو (الفلسفي والمذهبي) لكونه مذهباً فلسفياً يعتقد صاحبه بانتفاء موضوع المعرفة، واستحالة إدراكها،

- وفي مقابلة نشأ الشك المنهجي بوصفه منهجاً للبحث عن الحقيقة لذا سُمي أيضاً (بالعلمي) وهو لا ينتقص من يقينية أصحابه بوجود حقيقة يمكن معرفتها، ومن هذه العلاقة الجدلية بين الإطلاق والنسبية يثور التساؤل حول المجالات التي يمكن أن يتطرق إليها الشك، بل التي طرقها بالفعل.

ومجالات الشك تختلف في دائرة الشك المطلق عنها في دائرة الشك النسبي (المنهجي).

مجالات الشك المطلق:

أ- الشك في الحقيقة التي هي موضوع المعرفة، وهو شك في وجودها.

ب- الشك في إمكان معرفة الحقيقة (إن وجدت).

ج- الشك في إمكان إبلاغ المعرفة أو تداولها.

مجالات الشك النسبي:

بعد التسليم بوجود حقيقة وإمكان إدراكها لها، يظل الباب مفتوحاً لألوان من الشك النسبي أو الجزئي ومن ذلك:

(أ) الشك في طبيعة المعرفة: ومصدره تباين المذاهب في تكييف طبيعة المعرفة مما يوقف الفلاسفة موقف الشك تجاه هذا التباين.

(ب) الشك في مصادر المعرفة: فإنكار كل مذهب ومدرسة فلسفية لمصدر أو أكثر من مصادر المعرفة هو شك في جدوى هذا المصدر، ومدى يقينية المعرفة المتأسسة عليه، فمن أصحاب المذاهب من يصب شكه على الحواس، ومنهم من يشك في العقل، ومنهم من يشك فيما سوى الحدس والإشراق، وكل ذلك من صور الشك.

(ج) الشك طريق إلى اليقين: وهو شك في المعلومات والآراء المسبقة، وهدفه إفراغ العقل توطئة لإعمارها بحقائق يقينية تتأسس على بديهيات أولية، وهذا هو الشك الذي عاشه الغزالي. وحالة إفراغ الذهن أيضاً مز بها ديكرات حتى استقر على نقطة من اليقين في حقيقة تفكيره التي أسس عليها حقيقة وجوده (أنا أفكر إذن أنا موجود).

د) تأسيس العقيدة بين الفطرة والشك والنظر:

وهدف هذا الشك ومجاله ليس المعرفة النظرية، وإنما تأسيس إيمان يقيني بالله. فالإمام الجويني يرى أن أول واجب على المكلف هو النظر - وهو رأي المعتزلة - بينما يرى الإمام الإيجي أن المعرفة تتقدم وطريقها النظر ومن ثم يكون واجباً، ولكن الإيجي لا يرى النظر هو السبيل الوحيد إلى المعرفة فقد تحصل بالإلهام، والتصفية، والتعليم، ولكنه قد يكون السبيل الوحيد لمن وقع في الشك، والشك على العموم حالة طارئة لا يلزم سبقه لكل نظر أو معرفة.

أما شيخ الإسلام ابن تيمية فيرى أن للفطرة أثراً أساسياً في معرفة الله، ثم من حصل له الشك ولم يكن من سبيل لدفعه سوى النظر؛ يلزمه النظر

فالشك إذن تتعدد صورته ومجالاته من كلي إلى جزئي، ومن مطلق إلى نسبي، فيصل في قمته إلى درجة إنكار الحقائق الموضوعية، وفي أدنى منازلها يكون شكاً في وسيلة من وسائل تحصيل المعرفة أو أداة من أدواتها، ويتلون اسمه بحسب نوعه ومجاله فالمتعلق بأسس الاستنباط يكون منطقياً، وربما كان جزئياً متعلقاً بالأسس المعرفية كالتجريبي، وغير ذلك من الأنواع.

الشك المطلق هو الشك المبني على إنكار المعرفة اليقينية، ونفي الحقائق، والقول بتكافؤ الأدلة، ومن ثم تعليق إصدار الأحكام. وهذه الصورة من الشك وصلت إلى مفكري الإسلام إثر حركة الترجمة مثلما وصلت إليهم ردود سقراط، وأفلاطون، وأرسطو على هؤلاء الشكاك والمغالطين، وفي إطار التفاعل مع تراجم الفلسفة اليونانية:

1- علاقة الشك المطلق بإمكان المعرفة: الحديث عن موقف الفكر الإسلامي من الشك المطلق، هو حديث عن الموقف من إمكان المعرفة - بالضرورة - لطبيعة العلاقة بين الشك المطلق وإمكان المعرفة، أو لكونهما على النقيض فإثبات أحدهما نفي للآخر.

الوجود وإمكان معرفته (التصور الإسلامي للموجودات): إذا كان الشكاك الأوائل قد وصل بهم أمر الشك المعرفي إلى حد إنكار الوجود نفسه والأشياء وإمكان إدراك طبيعة ذوات الأشياء، فإن الفكر الإسلامي يقف موقفاً مغايراً لهذا التصور، إذ يقرر استناداً إلى القرآن وجوداً مستقلاً للأشياء خارج نطاق الذات المدركة .

فهذا الخلق الرباني موجود من حولنا أحاط به إدراكنا أو لم يحط، أما التقسيم اليوناني للأشياء إلى: فيزيقية (طبيعية). و ميتافيزيقية (ما ورائية أو ما وراء الطبيعة).

فلا يبعد كثيراً عن التصور الإسلامي مع خصوصية المعاني والمفردات حيث تنقسم الأشياء إلى: 1- عالم الشهادة: ويشبه مفهوم عالم الطبيعة الخاضع لإدراك الإنسان بالحس والتجربة، والشهادة هي الخبر القاطع.

2- عالم الغيب: ويشبه مفهوم العالم الماورائي، وهو ما غاب عن الإنسان، ولم يدركه بحسه، وإنما بإخبار من الله ورسوله.

ولفظ الغيب والشهادة - مع تقابل المعنى وردا تجاوراً في كتاب الله في عشرة مواضع، وجميعها وردت في بيان اختصاص الله تعالى بالعلم المطلق (غيب وشهادة). والمعرفة الكلية لا يتاح لبشر من خلقه أن يحيط بها على وجه الشمول واليقين.

2- الأساس القرآني لإمكان المعرفة:

القرآن يحمل الشواهد التي تؤكد على إمكان المعرفة وإدراك الحقائق على وجه اليقين، بمصادر وأدوات، ونقف هنا على شواهد من الآيات التي حملت ألفاظاً ذات دلالات معرفية في سياقها المصطلحي ممثلين بأية واحدة لكل لفظ من ألفاظ (المعرفة) و (العلم) و (الحكمة) و(اليقين)، ومن ذلك قوله تعالى: (وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً) [النجم: 28]. ذلك مما ورد في شأن المعرفة والعلم، وفي شأن الحكمة قال تعالى: (يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا) [البقرة: 269]. والحكمة قد فسرها المفسرون (بإصابة الحق والعمل به).

وفي شأن اليقين وتناقضه مع الظن يقول تعالى: (وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين) [الجاثية: 32].

كذلك أبان القرآن العلاقة بين الشك واليقين، والعلم والظن في مقابلة بليغة حوتها أية واحدة في قوله تعالى: (وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً) [النساء: 157].

وإذا استصحبنا تداخل المعاني بين ألفاظ المعرفة، والحكمة، والعلم في النصوص الشرعية، والفكر الإسلامي عموماً، علمنا أن القرآن يحض على طلب العلم الراسخ والمعرفة اليقينية، ويدعو إلى نبذ الظنون، والشك، والتوهم ما أمكن ذلك، والنصوص الحاضرة على العلم، ومن أدوات المعرفة التي أشادت بها النصوص (الاجتهاد في الرأي) والتفكير، والتأمل كثيرة في كتاب الله تعالى، وسنة نبيه (والاستنباط) المبني على أسس النصوص وأصولها، والصادر ممن هو أهل لذلك، فقد قال تعالى ناسباً إلى الأئمة المجتهدين القدرة على معرفة مراده.